

فقه النهضة عند يوسف القرضاوي معالمه وآثاره

نورالدين مولاي*

جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان (الجزائر) moulay_nouredine26@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2026/06/10

تاريخ القبول: 2026/04/18

تاريخ الارسال: 225/12/20

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى الوقوف على دلالات فقه النهضة ومعالمه في مشاريع القرضاوي الفقهية والدعوية، وذلك للأثر الملحوظ الذي تركه الشيخ في الأمة من خلال كتبه وخطبه ومواقفه.

وقد اعتمدت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، حاولت به فهم وتفسير ونقد مشروع النهضة عند القرضاوي من زاوية الفقه، وذلك من خلال استقراء بعض كتبه ومشاريعه.

وانتهى البحث إلى أنّ الشيخ كان له سبق ملحوظ في توظيف الفقه في قضايا النهضة، وأنّ خصائصه ومؤهلاته أسعفته ليكون داعية مؤثراً ومتبعاً، وأنّه حاول من خلال مشاريعه العلمية والدعوية إعادة إحياء مشروع الحضارة في الأمة.

أغلب الدراسة عن الشيخ القرضاوي تناولت إمّا الجانب الفقهي أو الجانب الدعوي، وجاءت هذه الدراسة كاشفة عن مشروع النهضة والتمكين عنده، وهو جانب قل من تناوله بالبحث على أهميته.

الكلمات المفتاحية: القرضاوي، فقه النهضة، مشروع الحضارة، فقه التمكين، الصحوة.

Abstract:

This article seeks to identify the implications of the renaissance project and its foundations in al-Qaradawi's ideas, due to the clear impact he left on Islamic countries.

In this research, I adopted the descriptive analytical approach, with which I tried to understand the renaissance project of Al-Qaradawi from the angle of ideas, from his works.

* المؤلف المرسل

The research concluded that Al-Qaradawi had preceded others in employing Sharia in the issues of renaissance, and that his characteristics and qualifications helped him to be influential and followed in the movement of society.

Most of the studies on Al-Qaradawi dealt with the Sharia aspect, and this study revealed the renaissance project in his ideas.

Keywords: fiqh of Renaissance, the law of civilization, Qaradawi project.

1. مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاة وبعد:

عندما أفاقت الأمة الإسلامية من سباتها الحضاري الذي دام قرونا وجدت نفسها تن تحت وطأة استعمار غشوم، احتل أرضها وشوه هويتها واستلب عقول أبنائها، وطفقت على عجل تتلمس سبل النهوض بعد استفاقتها من أحلام السبات الحضاري، وأول تحدي وضع أمامها بعد شعورها بمآزقها التاريخي الذي أصبحت تعيش فيه هو فهم حالها والوعي بحقيقة ما يدور حولها، وقد ترجم رجال النهضة والإصلاح حالة القلق التي صاحبت استفاقتها المتقطعة إلى سؤالين جوهريين هما: لماذا تأخر المسلمون؟ وكيف ينهضون من جديد؟

لقد كان هذان السؤالان محور النقاش الحضاري في البلاد العربية والإسلامية منذ ما يزيد عن قرن من الزمان ومازال مستمراً إلى اليوم، فبعد صدمة الارتطام بقاع التخلف التي نهت الأمة من غفلتها وأيقظتها من أحلام قرون التبطل الحضاري بدأت النخب العلمية والثقافية في العالم العربي والإسلامي تتلمس سبل النهوض بالأمة من كبوتها، وبدأت مشاريع التمكين المنشود تورق من جديد، وتراءت إرهاصات الإحياء العام هنا وهناك من خلال أئمة مصلحين ودعاة عاملين ورجال مفكرين، ظهوروا على الساحة الفكرية مبشرين بغراس حضاري جديد بدأ يعم الأراضي القاحلة ويعيد لها نضارتها.

في هذه الظروف المشحونة ببوادر النهضة وقلقها ولد الشيخ يوسف القرضاوي، فنشأ وتربى على طموح إحياء أمجاد الإسلام وآماله، وامتلاً قلبه بأسئلة التمكين للدين منذ نعومة أظافره، وما كاد يشد عوده حتى أخذ مكانه بين طلائع الصحوة الإسلامية مبشراً بتطلعاتها ومدافعاً عن مبادئها، وأسعفه في هذا المسعى تكوينه المزدوج الذي حظي به؛ فهو من جهة ابن الأزهر الشريف ومن طلابه المميزين وعلمائه الواعدين، ومن جهة أخرى هو ابن الصحوة الإسلامية التي نشأ في محاضنها، وربى على آمالها، وأوذي في سبيلها، وحمل على عاتقه كغيره من أبنائها أثقال إحياء الإسلام في القلوب وتجديد روحه في الأمة.

أهمية البحث:

لقد كان لشخصية الإمام القرضاوي خصائص عزّت في زمانه؛ فهو: عالم وعامل، وإن شئت فقل: فقيه وداعية، أو قل: شرعي وحركي، ولهذه الميز المتقابلة تجليات في رؤيته الفقهية للقضايا المختلفة، فهو رجل موسوعي له في مسائل الشريعة والحياة صولات وجولات، حاول الجمع فيها بين ثوابت الشريعة وضرورات العصر، من خلال رؤية فقهية متفردة، وجهت إليه بسببها سهام النقد.

إنّ أهمية هذا البحث نابعة بالأساس من أهمية دور الشيخ الذي قام به في الأمة فقيماً وداعيةً، فما من مسألة في هذا العصر اهتمت بها الأمة ووضعتها على طاولة النقاش إلا وكان له فيها مشاركة، خاصة تلك المسألة المتعلقة بحركية المجتمعات الإسلامية المتشوفة لأفاق النهضة، والتي وجدت ضالتها في كتبه وخطبه، والتي طرح فيها تصوراته لمعالم فقه النهضة التمكين.

الإشكالية: تدور أهم فرضيات هذا البحث حول سؤال مركب يمثل إشكاله وهو:

ما هي النظرة الفقهية للنهوض بالأمة عند القرضاوي؟ وماهي أهم معالمها التي حاول إبرازها؟ وما هي القواعد التي تخدم تلك المعالم؟ وهل كان القرضاوي في ذلك تابعاً لمن سبقه أم قد استقل برؤية جديدة؟ وما آثار تلك الرؤية في حاضر الأمة ومستقبلها؟

المنهج: حاولت في هذه الورقة السير وفق منهج وصفي تحليلي يحاول فهم وتفسير ونقد مشروع النهضة عند القرضاوي من زاوية الفقه، وذلك من خلال ما سطره في كتبه، خاصة تلك التي كانت مرجعاً في فهم أفكاره، وقد رأيت أنّ من أهم ما يعتمد عليه في هذا العمل من

كتب الشيخ مذكراته "سيرة ومسيرة" فهي تعدّ مصدراً خصباً لمن أراد فهم فقهه ومواقفه، فحرصت على الاعتماد عليها في المقام الأول لبيان رؤيته الفقهية وذلك لعدة اعتبارات منها:

- أنّ الشيخ كتبها في أواخر حياته فخرجت محملة بتجارب السنين يربط فيها الأحداث بعضها ببعض ثم يفسرها بعد أن كشف له الزمن أكثر حقائقها.

- وقد كتبها بقلم الفقيه فيعلق على الأحداث التي عاشها من زاوية النظر الفقهي وهذا ما يساعد على الكشف عن معالم النهضة في فكره.

- وكذلك ذكر فيها أعماله الفقهية الكبرى مرتبة حسب زمن وقوعها فيربط في ذلك بين أعماله وأسبابها ونتائجها، وهذا ما ساعد على الكشف عن منهجه في أهم أعماله التي أثرت في الأمة.

الخطّة:

تسعى هذه الورقة لتقديم رؤية شاملة لفقه النهضة عند القرضاوي وعلائقه بغيره من خلال إبراز أهم معالمه وأثاره في أربعة محاور وفق الخطّة التالية:

- أولاً: النشأة الأولى خصائص ومؤهلّات.

- ثانياً: فقه النهضة عند القرضاوي بين التأسيس والاتباع.

- ثالثاً: معالم فقه النهضة عند القرضاوي.

- رابعاً: أثار فقه النهضة عند القرضاوي.

ثم خاتمة بأهم النتائج... والحمد لله رب العالمين.

2. النشأة الأولى خصائص ومؤهللات:

إنّ التعرف على منهج القرضاوي رحمه الله في رؤيته الإصلاحية يمر أولاً بمعرفة البيئة التي نشأ فيها ومدى تأثيرها في سيرته العلمية، ولذا فإنّ دراسة منهجه الفقهي نستلها أولاً بوصف الحاضنة الاجتماعية التي ولد فيها وترعرع، وتلقى من خلالها بواكير معارفه العلمية، فالإنسان ابن بيئته وأثرها في شخصيته بعيد الغور، وممّا يزيد التأكيد على أثر النشأة الأولى في مسيرة الشيخ القرضاوي كثرة حديثه عنها، فلا تكاد تخلو كتاباته التي يستذكر فيها تكوينه العلمي من إشارات هنا وهناك إلى بيئته الأولى، يستدعي منها ما يمثل به أو يستشهد له، سواء في ذلك مذكراته المكتوب أو أحاديثه المسموعة، وهذا ما يُشعرنا بتلك البصمة العميقة التي تركتها مراحل حياته الأولى في شخصيته، حتى أنّه في مذكراته أشبع تلك المرحلة وصفاً وتفصيلاً، غاب عن كثير من مراحل حياته فيما بعد، واختار لمذكراته عنواناً لصيقاً بتلك المرحلة فسمّاها "ابن القرية والكتاب"¹.

لقد حددت النشأة الأولى للشيخ القرضاوي الكثير من ملامح شخصيته من حيث يدري ولا يدري، وقد تركت أحداثها بمسراتها ومحزناتها ومضحكاتها ومبكياتها أثراً بالغاً في سيرته العلمية ومسيرته الدعوية، ظلت ملازمة له إلى أواخر حياته الحافلة بالعتاء رحمه الله.

فالقرضاوي العالم والداعية هو قبل كل شيء ابن القرية التي ربتّه وليداً ونشأته يافعاً، ومن خلال محاضنها الأسرية وكتاتيبها ومساجدها اكتسب أهم مقومات شخصيته التي عرف بها، وحين خرج من قرينته أول الأمر طالباً أزهرياً ثم خطيباً وداعيةً وفقهياً ومفكراً بعد ذلك تفتقت تلك الملكات الكامنة في شخصيته والتي نمت بمرور الأيام ليصبح بعد سنوات يسيرة خطيب الدعوة وشاعرها، وفقه الصحة ومفكرها، يؤلف بين أفكار النهضة ومسائل الفقه، وبين قساوة الواقع وعواطف الشعر، ويساهم في حركة إحياء الأمة التي طبعت سنوات ما بعد نكبة 1967م والتي اصطّح عليها بفترة الصحة الإسلامية.

سأحاول في هذا المحور التحدث عن النشأة الأولى للقرضاوي من خلالها تمييز أهم خصائص تلك النشأة وأهم المؤهللات التي اكتسبها فيها.

¹ - يوسف القرضاوي، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (القاهرة: دار الشروق، 2002).

1.1. النشأة الأولى:

ولد الشيخ يوسف بن عبد الله القرضاوي سنة 1926م في بلدة (صفط تراب)، وهي قرية نائية من قرى مصر العميقة الواقعة على ضفاف وادي النيل، حيث يعتمد الناس في معاشهم على فيض مائه منذ غابر الزمن، فمنه يشربون ومن أرضه يأكلون، يكابدون بنفوس صابرة شظف العيش وكدّ السعاية من أجل الرزق.

كان أهل (صفط تراب) كما وصفهم الشيخ في مذكراته يعيشون على كفاية وكفاف، ويحيون في قريتهم حياة هادئة، يحنو بعضهم على بعض، ملتزمون بتديهم الفطري الذي ورثوه عن آبائهم، فكان لهم نعم الكساء من عوادي الزمن، يلفهم بسكينته ويحيطهم بعطفه فلا يرون في عيشتهم غير الرضا آمنين مطمئنين، وقد أسعفهم بذلك بعدهم عن صخب المدن الكبرى، فلم تكدر خواطرهم لوثة الحضارة الوافدة، ولم يخطف أبصارهم بهرجها الخداع، فعاشوا كما وصفهم الشيخ بقلمه حياة بسيطة تنعم براحة البال.¹

في هذه البيئة المنزوية من قرى مصر العميقة نشأ الشيخ القرضاوي يتيم الأب في كفالة عمه ورعاية أمه وأخواله، فشب على خصال الريف وشدائده، وتعلم من أهله معاني السعادة في البساطة، ومعاني القوة في المكابدة، ومعاني الحرية في القناعة، وهذا ما أكسبه استعداداً جسمياً وعقلياً وروحياً أعانه كثيراً على معالجة شدائد الحياة في ذلك الزمن العصيب الذي كانت تحياه الأمة الإسلامية عامة والبلاد العربية خاصة ومصر على وجه الخصوص.

إنّ الحياة الأولى التي عاشها الشيخ القرضاوي في قريته قد صقلت الكثير من معالم شخصيته التي ستطبعه على طول مشواره الفقهي والدعوي، منها ما كسبه من أسرته التي نُبئ فيها، ومنها ما تكسبه من الحالة العامة التي كانت تسود مصر في ذلك الوقت، وهي فترة زمنية فارقة عاشتها الأمة جمعاء بعد الهجمة الاستعمارية لدول الغرب على أقطار العالم العربي والإسلامي، والتي انتهت باحتلال أرضها ونهب خيراتها ولم يسلم من تلك الهجمة الشرسة إلا بلاد الحجاز واليمن، وأمّا باقي بلاد المسلمين فكانت بين استعمار واحتلال وانتداب.

¹ -القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ج 1، ص 13.

لقد سجل القرضاوي في مذكراته صوراً كثيرةً لتلك البيئة الريفية التي كان شاهداً عليها، ويمكن من خلال ذلك السرد المفصل عن حياة الطفولة أن نشكل إطاراً تصورياً عن تكوينه القاعدي، فقريّة (صفط تراب) على بساطتها لم تبخل على يوسف الطفل اليتيم بدروسها في مختلف مناحي الحياة، فزيادة على تكوينه العلمي الأولي الذي حظي به في مساجدها ومدارسها لم تبخل عليه بدروس في أسواقها، ولم تحرمه من تجارب سياسة على بساطتها من خلال اطلاعه ومشاركته في الانتخابات الحزبية التي كانت تقيمها الحكومة في ذلك العهد، والتي قربته من صورة الحالة العامة التي كانت تدور في الساحة السياسية زمن الملكية في مصر¹.

وحين خرج من قريته الأم إلى مدينة (طنطا) طالباً أزهرياً زادت الأحداث التي عاشها في الوسط الجديد خبرته، ونورت المعارف التي تلقاها عن شيخوه بصيرته، وأصبح تردده بين المدينة والقرية في العطل والمناسبات وما يتخلل ذلك من إلقاء دروس وخطب في مساجد القرية ومحافلها تطبيقاً عملياً لما تعلمه في قاعات الدرس، ثم كان التحول الكبير في رؤيته للحياة العامة عند ما تعرف على الإمام حسن البنا رحمه الله وانتساب إلى جماعة الإخوان المسلمين والتي سيعيش بآمالها ويكتوي بآلامها.

سأحاول في هذا العنصر رصد أهم خصائص شخصية يوسف القرضاوي وأبرز مؤهلاته من خلال مسارات وأحداث النشأة والتعلم، والتي ستطبع فيما بعد فقهه ودعوتها كما عرفها الناس، وذلك من خلال جرد أهم الخصال التي نشأ عليها وأهم الميز التي اكتسبها.

2.2. خصائص النشأة:

لا أقصد بكلمة الخصائص هنا مميزات الشيخ العلمية كحفظه المبكر للقرآن وتفوقه في جميع مراحل دراسته ونباهته المبكرة، ولكن أقصد تلك الخصال والميز المغروسة في شخصيته والتي طبع عليها في البدايات ولا زمته في النهايات حتى صارت له جبلة أو كالجبلة، وكان لها الأثر الأبرز في رسم صورته في مخيال الأمة.

¹ - المرجع نفسه، ص 48.

2.1.2.2. البساطة:

إنّ ميزة البساطة والسهولة واليسر التي كانت تطبع الشيخ رحمه الله هي أول ما يلاحظ من صفاته، خاصة لمن عرفه عن قرب، والتي جعلت منه شخصاً سهل العريكة ميسور المعاشرة، صادق اللهجة بعيداً عن التكلف، قريباً من الجميع بعيداً عن الانطواء والانزواء، وأحداث حياته كلها بدءاً من مطعمه ومشربه وملبسه مروراً بفقهه ووعظه وصولاً إلى اجتهاده ومواقفه إنّما هي ترجمة عملية لهذه البساطة التي لازمتها طوال مراحل عمره المختلفة، والتي جعلته أميل إلى اليسر في فقهه، وألزم للبشارة في دعوته، وقد طبعت هذه البساطة خطابه في الفتوى والوعظ، فكلامه سهل المأخذ قريب للأسماع، واضح في ألفاظه يسير في معانيه، يصل إلى المتلقي دون كلفة، ويتساوى في ذلك عوام الناس وخواصهم، ولا يحتاج متلقيه إلى كبير عناء لفهمه، وكثيراً ما كان يحدث هو عن نفسه مبرزاً هذا المعنى بقوله: منهجي في الفقه التيسير وفي الدعوة التبشير.¹

وهذه السهولة في الخطاب هي التي أبعدته عن الكلفة والتعسير، وهي التي فتحت له قلوب الناس في مشارق الأرض ومغاربها، فدخلت مواعظه القلوب بلا استئذان، على اختلاف بيئاتهم وثقافتهم، فجمهوره من المستمعين ليسوا محصورين في بلد بعينه بل له متابعين في جهات الأرض الأربع، وقد لاقت برامجه الإذاعية نجاحاً غير مسبوق عند عموم المسلمين عربهم وعجمهم.

2.2.2.2. النفور من الجبر والقهر:

لقد كان الشيخ القرضاوي كثير التغني في كتبه وخطبه وأشعاره بعشق الحرية وكرهية الظلم والطغيان، وبرفض الجبروت والقهر، وهذه صفات جبل عليها البشر الأسوياء، فالناس يتوقون للتحرر ويكرهون الاستبداد، ولكن كثيراً من الناس قد تنتكس فطرتهم فيركنون لقهر عام ويستسيغون ظلماً طاغياً رهبةً أو رغبةً، ويستلذون الذلة والمسكنة.

وقد شهد الشيخ في صباه صوراً من الظلم العام الذي كان يصيب الفلاحين في قريته جراء تسلط ملاك الأراضي على رقاب العاملين فيها من زراع القطن، وأحسّ بشدة الفاقة والضيق اللذان كان يعانيهما أولئك الفلاحون البسطاء، وكان شاهداً أيضاً على التهميش

¹ -يوسف القرضاوي، دراسات في فقه مقاصد الشريعة، (القاهرة، دار الشروق للتوزيع والنشر، 2006) ص151.

العام لسكان قريته من التنمية وأثر ذلك في حياتهم، فاستشعر مبكراً مرارات الظلم والقهر، وهذا ما جعله شديد النفور من جميع صور التضييق والقهر الحسي منها والمعنوي، بل إن تغلغل ذلك النفور في نفسه جعله يرفض فكرة الجبر في العقائد والفلسفات، سواء في ذلك الجبرية باسم الدين أو باسم المجتمع أو باسم السياسة، بل جعله يتضايق حتى من الغلق الحسي للأبواب كما حدث هو عن نفسه في غير ما موضع من مذكراته حين ذكر نشأته الأولى على حب الأبواب المفتحة وكراهية الأبواب المغلقة.¹

لقد ولد هذا النفور الشديد من الظلم والقهر عند الشيخ نزعة (تحريرية) في مسيرته العلمية، زادها ظلم السجون الذي عاشه رسوخاً في نفسه، فكان شديد الرفض لمصادرة الآراء وحصر الحق في جهة واحدة، فهو وإن كان منشؤه شافعياً في بيئته الأولى، ثم تخصص في مذهب أبي حنيفة في دراسته الأزهرية، إلا أنه كان صاحب دعوة عريضة لتفعيل الاجتهاد ونبد الجمود والتقليد، وهذا ما يظهر بوضوح في اختياراته الفقهية، وفي نقده للفقه المتحجر على أقوال المتقدمين حسب وصفه، وترمه الواضح من قيود التمثيل التي لا تشهد لها آيات القرآن ولا أحاديث السنة ولا المبادئ العامة للشريعة الإسلامية.²

3.2.2. النزعة الاستقلالية:

عاش القرضاوي طفولة سليمة حساً ومعنى كما وصفها، فلم يشعر بحرمان اليتيم، بل وجد في أسرة أبيه وفي بيت جده لأمه عوضاً عن فقدته المبكر، وهذا ما جعله يشعر بالتمييز على أقرانه بكونه يعيش بين أسرتين كرميتين تحيطانه بالعطف والرعاية، وقد وصف هو هذه الحال بقوله في مقام التمدح واستشعار المنة: للناس بيت ولي بيتان.³

فلم يحس ألم الفقد رغم يتمه في الصغر، ولعل تخففه من ضوابط الأبوة وما فيها من إلزام صارم قد غذى النزعة الاستقلالية عنده، فاليتم وإن كان فيه حرمان ظاهر من رعاية الأب وتربيته إلا أن فيه التخفف من بعض قيود الأبوة، فعاش حياته الأولى موفر الرعاية مع دلال مميز بين أسرتين، فنشأ خفيف الكاهل من تحكّكات الآباء في أبنائهم، مستقلاً برأيه بخلاف أكثر أقرانه.

¹ -القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ج 1، ص 28.

² -المرجع نفسه، ص 113.

³ -المرجع نفسه، ص 62.

وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بوضوح في ميله الشديد إلى اتخاذ قراره بنفسه، حتى في مطعمه ومشربه، وفي حساسيته الشديدة لقواعد التأديب في الكتاب، ثم تجلت بعد ذلك في سعيه المبكر للاكتفاء مادياً من خلال استثمار أمواله، وتوفير دخل مستقل، ولو في صورة مشروع صغير رأس ماله (إوزة بياضة)، والتي اشتراها فعلاً من حرّ ماله ليستثمر في منتوجها من البيض في أول سعيه لتوفير دخل مستقل.¹

وقد كان من آثار هذه الاستقلالية المبكرة في اتخاذ القرار إصراره على سلوك سبيل العلم دون سواه، فحين أكمل المرحلة الابتدائية كان رأي الأسرة أن يتوجه لسوق العمل، لكنّه أصّر على الانتساب إلى الأزهر رغم معارضة الأقربين، وقرر العدول عن طريق أعمامه في الاشتغال بالفلاحة وعن سبيل أخواله في ممارسة التجارة، فشّق لنفسه طريقاً مستقلاً عن آل بيته، ليس له فيه سابق من عمّ أو خال.

وقد تركت هذه الخصيصة المتأصلة في شخصه بصمتها الواضحة في سيرته ومسيرته، فلم يعرف عنه في فتاواه وفي كتبه الالتزام بمذهب بعينه، بل كان يأخذ ويترك من أقوال المتقدمين حسب ما يؤديه إليه نظره واجتهاده، وحسب ما يراه صالحاً للمسلمين، وكثيراً ما كان يشير إلى مزاجته بين المذهب الشافعي والحنفي في التلقي قائلاً بدعابته المعهودة: أنا مذهبي "حنفشي"، قاصداً الاستفادة من كلا المذهبين دون تقليد لواحد منهما بعينه، وقد ناله الكثير من النقد بسبب هذا المنهج المستقل في الفقه بدعوى مخالفته للمذاهب القائمة، واعتراضات بعض معاصريه من العلماء على بعض فتواه في ذاك مشهورة، خاصة في كتابه "الحلال والحرام في الإسلام" الذي يبرز صورة الاستقلالية التي كان يتحلّى بها.

ولبيان ذلك لا بأس من تقديم الحديث عن هذا الكتاب الذي يعتبر باكورة أعماله الفقهية وأكثرها شيوعاً بين الناس، والذي استقل فيه بمنهجه الذي سيعرف به بعد ذلك، وقد بينه بوضوح في مقدمة الكتاب، فحاول أن يكون مجانباً لدعاة التغريب والتميع، وأن يكون محايداً عن دعاة التعصب المذهبي الجامدين على آراء فقهية معينة.²

¹ - المرجع نفسه، ص 76.

² - يوسف القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 2012)، ص 10.

وقد اعتمد في هذا الكتاب على مصادر متنوعة، ذكر منها ثلاثة بالاسم، وهي تعود إلى فقهاء عرفوا بنزعتهم الاستقلالية عن البيئة العلمية التي عاشوا فيها، أولهم ابن حزم الظاهري من خلال كتابه "المحلّ" وكان مستقلاً بآرائه الظاهرية عن البيئة المالكية التي عاش فيها، والثاني الإمام الشوكاني من خلال كتابه "نيل الأوطار" وكان مستقلاً بآرائه الفقهية عن البيئة الزيدية التي عاش فيها، والثالث ابن الأمير الصنعاني والذي اعتمد على كتابه "سبل السلام" وهو أيضاً مستقل عن بيئته كسابقه.¹

3.2. المؤهلات الفقهية والفكرية والدعوية:

لقد منّ الله سبحانه وتعالى على الشيخ بمجموعة من المؤهلات والاستعدادات الفطرية التي أسعفته كثيراً في مساره العلمي والدعوي، فزيادة على نباهته المبكرة التي أمكنته من حفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة، كان رحمه الله متفوقاً على أقرانه في جميع مراحل دراسته، وقد صدق ظن شيوخه فيه، حين لاحظوا نباهته وفاعليته ونشاطه، فاستشرفوا له مستقبلاً واعداً يعود بالنفع عليه وعلى الأمة جمعاء.

وقد كان لهذه المؤهلات التي منّ الله بها عليه أثرها الواضح في تذليل الصعاب الجسام التي كانت تحول دون بلوغ أهدافه المسطرة. فقد تعرض رحمه الله في أوائل حياته لصوارف قهريّة وهو لا يزال في بداية الطريق، فقاسى ويلات الاعتقال، وتعرض لألوان التعذيب الجسدي في السجون، وذاق ظلم الإقصاء من الوظائف، وهذه عقبات كفيلة بأن تصرف من ابتلي بها عن مراده، وأن تشوش ذهنه وتعطل حركته، ولكن الله لطف بالشيخ وسلمه من كل ذلك، ولم يزد به بلاء السجن والتعذيب إلا إصراراً وتفانياً في سبيل بلوغ هدفه الذي اختاره.

وحين أتمّ الشيخ تكوينه وتفرغ للجانب العملي من حياته، واشتغل بالتدريس موظفاً وبالوعظ متطوعاً ظهرت ثمار مؤهلاته في ثلاثة جوانب من حياته العلمية والعملية: في الجانب الفقهي وفي الجانب الدعوي وفي الجانب الفكري:

¹ - القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ج2، ص218.

1.3.2. مؤهلاته الفقهية:

كان لشيخ رحمه الله جملة من الميز العلمية التي أسعفته في باب الفقه، وهو أسعد الميادين التي خاضها بتلك الميز والمؤهلات، فقد كان يتصف بالفهم الدقيق لمسائله مع وعي عميق بواقع المسلمين، وصبر ومثابرة على عويصات قضاياه التي تشغل بال الأمة، والتي يحتاج الناظر فيها إلى تنقيب طويل في الكتب، ورجوع متكرر إلى أمهات مصادر الفقه، وبواكير أعماله الفقهية تشهد له بذلك، ككتاب (الحلال والحرم في الإسلام) وكتاب (فقه الزكاة) وهما دليلان عمليان على هذه المؤهلات التي تميز بها فقه الشيخ، والتي شهد لها كبار علماء الأمة، فأتوا على أصالة منهجه في البحث وسلامة مسلكه في الاستدلال، وإن خولف في بعض اختياراته الفقهية في فتاويه خاصة، لكن عموم منهجه في الفقه الذي مال فيه إلى التيسير ما استطاع إلى ذلك سبيل فقد تلقاه العدول من علماء الأمة بالقبول.

2.3.2. مؤهلاته الدعوية:

وأما مؤهلاته الدعوية فقد طبعها صوته الجمهوري ونبرته المميزة وفصاحته الظاهرة، وإتقانه لفنون الخطابة والإلقاء، والتي تمرّس بها صغيراً ومملكاً أزمته كبيراً، وطبع خطابه الدعوي أيضاً بعاطفته المتدفقة ولهجته الصادقة، فكان خطاباً قارعاً بألفاظه قوياً بمعانيه يشد السامعين إليه شداً.

وقد نذر رحمه الله نفسه للدعوة في سن مبكر، فاشتغل بها ولها محتسباً ومتطوعاً، فعرفته المنابر في مختلف المحافل خطيباً ومحاضراً وواعظاً وشاعراً، والخطابة بأغراضها المختلفة هي سلاح الدعوة الذي لا يفلّ وساعدها الذي لا يكلّ، وقد جمع الله له بين فصاحة اللسانين وقلّ أن يجتمعا لشخص؛ فهو خطيب وكاتب، مارس الدعوة بلسانه وقلمه، وهذه من أقوى مؤهلات الشيخ، فمن العلماء من يكون فصيح اللسان حامل القلم ومنهم من هو بالعكس، وقلّة من يجمعون بين قوة الفصاحة في اللسان وقوة البيان في القلم.

3.3.2. مؤهلاته الفكرية:

أما مؤهلاته الفكرية فيمكن أن نلخصها في وعيه الحضاري المبكر، الذي جعله يستشرف سبل الخلاص للأمة في ذلك الزمن الصعب، فلم يقف عند تشخيص الأمراض ونقد السلوك العام السائد في زمانه كما هو الشأن في كلام الكثير من الوعاظ، الذين

يشتغلون بتشخيص الداء أثر من وصف الدواء، بل تعدى مرحلة الوصف الظاهر إلى التفتيش عن الأسباب الخفية ثم اقتراح الحلول العملية لمشاكل الأمة المستعصية.

ولعل أهم ما يطبع فكر القرضاوي رحمه الله هو تناوله للتحديات الحضارية التي كانت تواجه الأمة من زاوية الفقه، فسعى من خلال تكوينه الشرعي القاعدي إلى تفعيل دور الفقه الإسلامي كرافعة أساسية للنهوض بالأمة، وهذا مسلك لم يكن ملتفتاً إليه كثيراً في ذلك الزمن، فقد كان النقاش الدائر حينها يقتصر في أغلبه على الجانب الفكري فقط، وأكثر من تناول قضايا النهضة في البلاد الإسلامية حاول معالجتها من جانب الأفكار والفلسفات التي كانت سائدة حينها وأغفل دور الفقه في القيام الحضاري المنشودة، بل إن بعض المتحدثين باسم الإسلام حينها كانوا ينظرون للفقه الإسلامي على أنه عائق حضاري يجب التخلص منه وإدراجه في طي النسيان، فلا يمكن للأمة في زعمهم أن تستفيد منه إلا في دوائر ضيقة كالشعائر التعبدية ومسائل الأحوال الشخصية.

وقد انخرط في هذا المسلك للأسف الشديد رجال محسوبون على مؤسسة الأزهر، من أشهرهم خالد محمد خالد في كتابه المثير للجدل (من هنا نبداً)، وقد ردّ عليه الشيخ محمد الغزالي رحمه بكتابه الشهير (من هنا نعلم)، وهذه معركة أسالت الكثير من الحبر ومازالت، وجعلت الفقه الذي كان محصوراً في الشق العملي من أحكام الشريعة يدخل معركة العقائد والأفكار، ووضعت الشريعة الإسلامية من خلاله أمام سؤال الصلاحية لكل زمان ومكان.

هذه المزوجة بين النظر الفقهي والفكر الحضاري التي تحلى بها الشيخ يوسف القرضاوي هي التي جعلته ينقل مسائل الفقه من حالة الخمول الحضاري الذي طغت عليه في عصور التقليد والجمود إلى حالة من الفاعلية والتأثير في الصراع الفكري الدائر حول سؤال النهضة، وبهذا التفعيل أصبح الموروث الفقهي الذي هجر زماناً رافداً أساسياً من روافد النهضة الإسلامية في العصر الحديث.

فبعد أن كان الخطاب الإصلاحي المبكر ينظر إلى كتب الفقه الإسلامي على أنها أسفار مثقلة باجتهادات المتقدمين التي لا طائل من ورائها، أصبح ينظر إليه على أنه كنز ثمين فيه الكثير من الحلول الشرعية لمعضلات هذا العصر، وأن ما أبدعه فقهاء الأمة السابقون لا يستغني عنه اللاحقون.

وقد تجلّى هذا المسلك الذي أبدعه الشيخ جلياً وواضحاً في كتابه (الحلال والحرام في الإسلام)، حيث عالج فيه الكثير من القضايا المرتبطة بمشكلات الحضارة من زاوية الفقه، والتي كانت مطروحة على المسلمين المقيمين في الغرب خاصة، فوجد حلولاً لتلك المعضلات - حسب اجتهاده- في فقه المتقدمين كابن حزم وابن تيمية والشوكاني وغيرهم من علماء الأمة، مظهرًا بذلك أن نهضة المسلمين في الحاضر لا تكون بدون فقه أبدأ، وأن الأحكام المستنبطة من القرآن والسنة وفق ما قرره علماء الأمة هي الرافعة الحضارية التي تعيد للأمة عظمتها ومجدها.

3. فقه النهضة عند القرضاوي بين التأسيس والاتباع:

بعد أن رأينا في المحور السابق أهم الخصائص والمؤهلات التي كان يتحلّى بها القرضاوي رحمه الله، وحاولنا بيان شيء من آثارها في مسيرته العلمية، سأحاول الوقوف في هذا المحور على مكانة القرضاوي من حركة الإحياء وجهود الإصلاح وأفكار النهضة التي عمت منذ بدايات القرن العشرين، ولا يتم هذا إلا بتحديد موقعه فيما بين التأسيس والاتباع، وذلك من خلال الإجابة عن جملة من التساؤلات التي أحاول معالجتها في هذا البحث عموماً، أهمها تأثيره بالاتجاهات الإصلاحية التي كانت سائدة في زمانه، فقد كان رحمه الله صاحب علاقات متعددة وصاحب تجارب متنوعة، ولا بد لهذا الاحتكاك أن يترك أثراً في رؤيته الفقهية للتحديات الحضارية التي تعيشها الأمة اليوم، فما هي حدود علاقته برجال النهضة والإصلاح الذين سبقوه؟ وما أثر ذلك في رؤيته لوسائل النهضة والتمكين في هذا العصر؟ فهل متابعا لمن سبقه أم أنه تفرد بمسلكه الخاص وبمنظرة تجديدية لم يسبق إليها في التعامل مع شؤون المسلمين في مختلف أقطار العالم؟

ولكن قبل الإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من الوقوف على مفهوم "فقه النهضة"، باعتباره المصطلح الذي تدور عليه محاور هذه الورقة البحثية، وذلك من خلال تعريفه لغة واصطلاحاً، وأيضاً من خلال الكشف عن أهم مواضيعه، وعن أهم الاصطلاحات الفقهية القريبة منه، ثم الربط بين هذا المصطلح وبين آراء الشيخ واجتهاداته في الفقه والدعوة.

1.3. مفهوم فقه النهضة ومواضيعه ومظانه في كتب القرضاوي:

"فقه النهضة" مصطلح مركب من جزأين؛ الفقه والنهضة، ويتوقف فهم دلالاته على تعريف جزأيه، ويتوقف أيضاً على معرفة مواضيعه التي يعالجها وعلى أهم مسائله وقضاياها التي يناقشها:

1.1.3. دلالة "فقه النهضة":

الفقه لغةً: هو الفهم، وعرف في الاصطلاح بأنه: العلم بالأحكام الشرعية العملية التي طريقها الاجتهاد.¹

هذا تعريف الفقه في باب الأحكام الشرعية العملية للمكلفين، ولكن قد يتوسع في استعمال مدلوله فيكون شاملاً لكل الأحكام المستفادة من نصوص الشرع، ويصبح معناه أعم من أعمال المكلفين، فيقصد به الحركة العامة للأمة التي تظهر سلوكها الحضاري، فيقال: فقه التكافل، وفقه الأزمات، وفقه الفتن وفقه المقاومة وفقه التمكين وغيرها من الاصطلاحات التي كثر نحتها في هذا الزمن للدلالات على شمول الفقه لجميع مناحي الحياة، وهي اصطلاحات لم يتناولها المتقدمون بألفاظها وإن كانت أصول معانيها موجودة في ثنايا كلامهم.

هذا عن الفقه وأما النهضة في اللغة فهي مصدر الفعل (نهض) ومعناه القيام من قعود لأمر مهم، ويأتي أيضاً للدلالة على تغير الحال من ضعف إلى قوة كقولهم نهض فرخ الطائر إذ نبت الريش في جناحه، أو تغير الحال من سكون إلى حركة كقولهم نهض القوم في الحرب.²

وأما في الاصطلاح فإن كلمة النهضة قد ارتبطت في أدبيات الإصلاح وفلسفاته بمعاني استرجاع المكانة الحضارية المفقودة، وهي ترجمة للكلمة الأجنبية (Renaissance) والتي تعني الميلاد الجديد، وقد استعملت هذه الكلمة لوصف الفترة التاريخية التي بدأت فيها أوروبا تخرج من حالة التخلف التي كانت تلفها في العصر الوسيط إلى الحالة التي ستعرفها في العصر الحديث، ثم استعير هذا المصطلح من الأدبيات الغربية بعد ترجمته إلى كلمة

¹ -جلال الدين المحلي، شرح الورقات، حسام الدين عفانة، (فلسطين: جامعة القدس، 1999م)، ص 68.

² -إسماعيل الجوهري، الصحاح، أحمد عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، 1987م) ج 3، ص 1111.

"نهضة" لوصف حالة القلق الحضاري التي بدأت الأمة العربية والإسلامية تعرفها في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.¹

فالنهضة بهذا المعنى هي سعي أمة من الأمم للصدارة الحضارية، وتطلع شعب من الشعوب للريادة العالمية، ولا ترادف بين مفهومها وبين مفهوم التطور أو التقدم أو التمدن وإن كانت هذه المعاني ملازمة لها، فجوهر النهضة وحقيقتها إنما يكمن في تمكين الأمة لأفكارها وبلوغها مرتبة الريادة بين الأمم، ومزاحمة غيرها على قيادة العالم، وهذا المعنى هو المعبر عنه بسنة التدافع بين الحق والباطل، والذي يمنع فساد الأرض ويحقق صلاحها، والذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]

ومن خلال الجمع بين التعاريف السابقة للفقهاء والنهضة يمكن الخلوص إلى أنّ "فقه النهضة" هو موضوع من موضوعات الفقه المستحدثة في هذا الزمن والذي يمكن تعريفه بالشكل التالي:

هو العلم الذي يبحث في المسائل الشرعية المتعلقة بحركة الأمة أفراداً وجماعات ودولاً وهيئات في مسعاها لتبوء الصدارة الحضارية.

ويمكن تعريفه أيضاً بأنه: العلم الذي يبحث في وسائل التمكين وسبل الاستخلاف في الأرض وعمارته وفق ما أمر الله عز وجل.

فهو علم يستمد أحكامه من مصادر الشريعة ومبادئ العامة، ويضبط رؤيته بقواعد سنن الله الكونية في قيام الأمم وأقوالها، فيجمع في ذلك بين النظر في كتاب الله المسطور وبين الاعتبار بكون الله المنظور، يأخذ من الشريعة الأحكام ومن تاريخ البشرية التجربة.

2.1.1. موضوع "فقه النهضة" ومظانه في أعمال القرضاوي:

من خلال التعاريف السابقة يمكن القول بأنّ موضوع "فقه النهضة" في مجمله متعلق بالخطط العملية الواجب توفرها في الأفراد والجماعات وفي المؤسسات والهيئات العاملة لتحقيق نهضة الأمة، وهي خطط مبنية على نظرة فقهية شرعية تأخذ في حساباتها

¹ -جاسم سلطان، من الصحو إلى اليقظة، (المنصورة: مؤسسة أم القرى، 2005م) ص13.

حال الأمة وزمانها الذي تعيش فيه، وحجم التحديات المحيطة بها، فهو فقه إسعاف وإرفاق، يراعي التدرج والمرحلية والواقعية، خاصة في القضايا الكبرى ذات الأثر الواسع، وهو أيضاً فقه اضطرار في أغلبه لا فقه اختيار، أخرجته الحاجة والضرورة، عينه على نصوص الشرع من جهة وعلى واقع المسلمين المتأزم من الجهة الأخرى.

فالأمة اليوم تعيش انفصلاً غير مسبوق بين دينها وواقعها فرضته عليها نتائج سقوطها الحضاري، فحدثت لها نوازل ومستجدات لم تكن معروفة عند أسلافها، وهذا ما جعل الكثير من الباحثين في القضايا الإسلامية يتكلمون عن أنواع من الفقه ليس لها ذكر بالفاظها في كتب المتقدمين وإن وجدت أصول معانيها عندهم، فلو بحثنا في كتب المتقدمين ما وجدنا مصطلحاً كفقه الموازنات أو فقه الأولويات أو فقه البدائل أو فقه الأقليات، فهذه مواضع فرضتها على الأمة الضرورات القاهرة التي أصبحت تعيشها بعد سيطرت الأفكار الغربية بمنهجها الحداثي على الحياة العامة.

إنّ هذا النوع من الفقه المسعف لحال الأمة في نهضتها، والذي يوفر لها البدائل الفقهية التي تحفظ لها كينونتها من الذوبان في طوفان الحضارة الغربية، هو الذي سعى الشيخ القرضاوي لبيانته وتسطير معالمه، فكتبه وخطبه وفتاواه ومواقفه كلها تصب في مشروع الإحياء العام للأمة والدفع بها للنهوض من جديد، واستنقاذها من المأزق الحضاري الذي وجدت نفسها فيه، من خلال منهج وسطي ارتضاه، يحفظ لها الأصول ويوسع عليها في الفروع، وهذا المنهج المسعف هو الذي عبر عنه في عدة مناسبات بقوله: منهجي في الفقه التيسير وفي الدعوة التبشير.¹

وكثيراً ما كان رحمه الله يوظف اصطلاحات فقهية كاشفة لهذا المنهج، كفقه الموازنات وفقه الأولويات وفقه الواقع وفقه الأقليات وغيرها، وهي اصطلاحات تحاول الدلالة على ذلك النوع من التنزيل الشرعي الذي يراعي حال الأمة في هذا الزمن، ويوفر لها الوسائط الفقهية التي تمكنها من العبور الآمن من بوادر النهضة إلى مقامات التمكين، دون إدخالها في متاهات الجدل الذي يعطلها عن العمل ويضيع منها الوقت، ودون تحميلها أثقال الآراء الفقهية التي تعيق حركتها، وترمي بها في مضايق الخلاف.

¹ -يوسف القرضاوي، تبني منهج التبشير في الدعوة، معالم الوسطية الإسلامية، موقع سماحة الشيخ يوسف القرضاوي،

ولعل أقرب هذه الاصطلاحات إلى موضوع "فقه النهضة" هو مصطلح "فقه الصحوة"، والصحوة باختصار هي وصف للمرحلة التي أعقبت تراجع الحل القومي في البلاد العربية بصيغته الناصرية بعد نكبة 1967م، وبروز الحل الإسلامي كبديل نهضوي في الأمة، الذي كان يتسم بعاطفة إيمانية عمت ربوع العالم العربي، فشاع مصطلح "الصحوة" للدلالة على ذلك التيار الصاعد في بداية السبعينات من القرن الماضي والذي جعل شعاره الإسلام هو الحل.¹

هذا وإن كان مصطلح الصحوة أخص بالدعوة من الفقه، إلا أن أغلب أعمال الشيخ المتعلقة بالصحوة هي خادمة في جوهرها لسؤال الفقه، أو لنقل هي خادمة لفقه النهضة، وله في ذلك أعمال حاول أن يعالج فيها إشكالات الرؤية الفقهية عند أبناء الصحوة الإسلامية، من ذلك على سبيل الذكر لا الحصر كتابه (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) الذي عالج فيه ظاهرة التكفير والعنف في صفوف أبناء التيار الإسلامي، وكذلك كتاب (كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف) والذي حاول فيه ترشيد التعامل مع الموروث الفقهي.²

ولعل من أبرز هذه الأعمال التي تمثل لهذه الرؤية الفقهية عند الشيخ رحمه الله، والتي حاول فيها الجمع بين النظر الفقهي والرؤيا الحضارية؛ كتابه الشهير (الحلال والحرام في الإسلام) الذي أشرنا إليه سابقاً، والذي حاول فيه إثبات صلاحية الفقه ويسره وإسعافه لحياة المسلمين أين ما كانوا، وهو كتاب نال بسببه الشيخ شهرةً واسعة، وقد حظي بتركية طائفة من علماء المسلمين، ولم يسلم من الاعتراض خاصة في بعض المسائل التي رجح الشيخ جوازها مع وجود معارض قوي، وهي مسائل معدودة في الكتاب، وقد ردّ الشيخ على بعض معارضيه في آخر الكتاب مظهرًا منهجه في التدليل والاحتجاج.³

ومع أن هذا الكتاب هو بكورة أعمال الشيخ وقد أُلّف بعده عشرات الكتب، إلا أن الجدل حول كتاب (الحلال والحرام في الإسلام) ما زال قائماً إلى يوم، وقد وضعه خصومه في محور الاشتباك الفقهي بين قادح ومادح، وأسأل نقاده والمتعقبون لمسائله الكثير من الجبر

¹ - ينظر جاسم سلطان، من الصحوة إلى اليقظة، ص43، وأيضاً القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ج3، ص130.

² - يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، (قطر: كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1406هـ) ص16.

³ - القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، ص483.

للحط من قيمته، بل وتحامل عليه بعضهم فاتهمه بأنه حاد عن منهج العلماء في التحاكم للدليل، وأنه مَيَّع الفقه بتتبع الرخص، حتى وسم بعضهم الكتاب بأنه (كتاب الحلال والحلال في الإسلام)، وقد دافع الشيخ عن كتابه هذا وعن منهجه فيه بالحجة والدليل حسب ما رآه في عدة مناسبات فليُنظر في محله.¹

وأيضاً من الأعمال التي مثَّلت لفقه النهضة في فكر الشيخ رحمه الله، سلسلته الشهيرة في فقه الصحوة والتي سماها حتمية الحل الإسلامي، ومن أشهر أعماله فيها كتاب (الحل الإسلامي فريضة وضرورة) والذي جمع فيه بين "الفريضة" وهي كلمة شرعية وبين "الضرورة" وهي فريضة كونية، مبيناً بذلك أنَّ التمكين لهذا الدين لا يكون إلا من خلال القيام بالفريضتين معاً؛ الشرعية والكونية، ومثله أيضاً كتاب "الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا" والذي يندرج في نفس السلسلة، والذي بين فيه فشل الحلول الغربية المفروضة على العالم العربي والإسلامي وأفاق الحل الإسلامي المنشود في جوانب الحياة المختلفة.

2.3. القرضاوي ورجال النهضة التأثر والتأثير:

إنَّ الناظر في سيرة القرضاوي رحمه الله يلحظ اهتمامه المبكر بموضوع الإصلاح في تلك المرحلة الزمنية الفارقة من عمره، وكيف وعى وهو في سن الطلب كثيراً من مشاكل زمانه، وكيف قاده هذا الاهتمام بالشأن العام إلى محاولة فهم الأسئلة الحضارية التي كان يفرضها موضوع الإصلاح، ثم المشاركة بعد ذلك بصفته واعظاً وكاتباً وخطيباً وشاعراً في معترك صراع فكري لا ينقطع، كانت تعج به الفضاءات العامة في مصر وخارجها، وتتدافع فيه طروحات فكرية متباينة، حول أسباب تخلف الأمة وسبل استنهاضها من جديد.

وقد تصدر لهذا النقاش العميق حول وجهة الأمة الحضارية رجال بارزون في ذلك الزمن، ومن زوايا مختلفة دينية واجتماعية وحتى سياسية، وإن كانوا قد اتفقوا على وجوب النهوض إلا أنهم انقسموا حول سبل النهضة ووسائلها إلى فريقين متقابلين:

¹ - من ذلك رده على رسالة سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله حول بعض مسائل الكتاب التي اعترض عليها. القرضاوي، ابن

القرية والكتاب، ج3، ص264.

أما الفريق الأول فكان يرى أنّ لا سبيل لنهضة الأمة إلّا بمرورها عبر بوابة الحضارة الغربية، ولا مناص من اقتفاء آثار أهلها في ذلك حذو القذة بالقذة، ولهذا الفريق أفكاره ومفكروه وأراءه ومنظروه، فحاولوا اقضاء الدين من معادلة النهضة، ووسم دعائه بالرجعية والتخلف.

وأما الفريق الثاني الذي يقابله فكان يرى سبيل النهوض بالأمة في صلاحها وإصلاحها، من خلال إحياء الإسلام النقي فيها من جديد، وتنقيتها من خرافات عصر الانحطاط، وبعث ما غيب من معالم الشريعة السمحة، وتخفيف كاهلها من أثقال الجمود، فهو سبيل الخلاص الوحيد الكفيل بإخراج الأمة من قاع التخلف وبؤس الانحطاط.

وقد انضم القرضاوي إلى هذا الأخير مبكراً، بل وأصبح في وقت وجيز من أبرز المدافعين عن الحلول التي كان يطرحها، خاصة وأنّ معركة النهضة والإصلاح التي كان تشهدها الساحة حينها كانت تأخذ في أغلبها صورة النقاش الفكري الذي يميل إلى التعميم والنقد، ولعل أهمّ بصمة تركها القرضاوي في نقاش النهضة ذاك لما أخذ زمام المناقشة عن الطرح الإسلامي هو إدخاله الفقه في نقاش الأفكار، بعد أن كان حامل المشاركة في أجوبة النهضة، بل كان بعضهم يُحمل الفقه الإسلامي أوزار التخلف كاملة غير منقوصة.

لقد تحكمت النشأة الأولى للقرضاوي في مساره الإصلاحية، فهو في أصل تكوينه فقيه، رُبي في محاضن الأزهر وصنع على أعين شيوخه، كالبي الخولي وحامد أبو زويل ومتولي الشعراوي وسيد سابق وعبد الله دراز وغيرهم ممّن تعلم على أيديهم، وقد قال في حقهم بعد أن ذكرهم وعدد فضائلهم وفضلهم عليه: "كلهم أخذت عنهم واقتبست منهم، فجزى الله كل من علمنا حرفاً خيراً".¹

وأما دروس الدعوة والوعي الحضاري فقد تلقاها على مائدة جماعة الإخوان المسلمين ومن فم مرشدها حسن البنا رحمه الله، وحين مارس الدعوة بعد ذلك كان يستعمل مهارات الفقه بعد أن شابهها بفهم عميق للواقع ووعي دقيق بتحدياته، ثم نزلها على حوادث زمانه ومستجداته في ساحات السجال الفكري، وقد بقيت بصمة الفقه ملازمة له في جميع حالاته، فهو يكتب بقلم فقيه ويخطب بلسان فقيه ويرجح بميزان فقيه.

¹ -القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ج 1، ص 415.

ولا شك أنّ التحول الكبير في وعي القرضاوي ونظراته لتحديات زمانه كان يوم حضوره التاريخي لحديث الإمام حسن البنا رحمه الله بمناسبة الهجرة النبوية بمدينة "طنطا" وهو ما يزال طالباً في المرحلة الابتدائية، ولا غرابة إذا اعتبر القرضاوي الإمام البنا أعظم شخصية لقيها تأثيراً في حياته، فهو الذي فتح عينيه بذلك الحديث الدعوي الواعي عن الهجرة على المنهج الجديد في الاستفادة من الدرس الديني، من خلال تبصر النصوص الشرعية برؤى واقعية، والذي سيطوره القرضاوي فيما بعد في صورة منهج متكامل.¹

إنّ حديث البنا رحمه الله عن بناء الفرد ثم الأسرة ثم المجتمع ثم الدولة الذي أصّل له من خلال أحداث الهجرة النبوية والذي أعجب به القرضاوي بل وحفظه قد أعطاه الكثير من القواعد في التعامل مع أسئلة النهضة والتمكين، خاصة بعد انتسابه لجماعة الإخوان المسلمين وتدرجه في محاضنها، والتي ستؤطر رؤيتها الدعوية تفكيره مستقبلاً، بل يمكن القول من حيث التأثير والانتساب: إذا كان القرضاوي الفقيه هو ابن الأزهري فإنّ القرضاوي الداعية هو ابن جماعة الإخوان.

رغم هذا التعرّف المبكر لم يكن البنا رحمه الله هو صاحب الأثر الوحيد في تفكير القرضاوي النهضوي وإن كان هو صاحب الأثر الأعمق، بل كان هناك غيره من الدعاة والمفكرين الذين تركوا أثراً في رؤيته لقضايا العصر، وهم في أغلبهم من رجالات النهضة والإصلاح القريبين من جماعة الإخوان المسلمين التي نشأ فيها، من هؤلاء الأعلام الشيخ مصطفى السباعي والشيخ محمد الغزالي والشيخ أبو الحسن الندوي والأستاذ أبو الأعلى المودودي وغيرهم ممن جمعهم بالشيخ ساحة الدعوة الواسعة، وجعلته يستفيد من تجاربهم وأفكارهم وقد سجل الكثير من هذه اللقاءات وثمارها على صفحات كتبه وفي ثنايا أحاديثه عن الأئمة الأعلام.²

ولكن رغم هذا التلمذ المبكر على رجالات الدعوة قبله سواءً بالتلقي المباشر أو من خلال الكتب، إلا أنّ الشيخ قد ارتضى لنفسه أسلوباً خاصاً، فقد كان شديد النفور من التقليد والسير على الخطى وتقمص شخصية الآخرين، بل كان يرى لنفسه منهجاً مستقلاً

¹ -المرجع نفسه ج1، ص90.

² -لقد سجل الشيخ الكثير من تأثراته برجالات الإصلاح في ثنايا مذكراته خاصة في الجزء الثالث، ولم يخف إعجابه بهم مع حفاظه على تميزه المعهود.

عن شيوخه رغم إعجابه بهم، وقد تكلمنا عن نزعة الاستقلالية المركوزة في طبعه في أوائل هذه الورقة، وعن آثارها في مسيرة الشيخ، التي جعلته يجمع بين الحب والنقد، وبين الإعجاب والاستدراك.

فلم يقف حبه للجماعة التي نشأ فيها وتجرع معها عذابات الطريق حائلا دون نقده لسياساتها العامة ولبعض مفكرها، بل وحتى استدراكه على بعض اجتهادات مؤسسها الأول، وجهره بأخطاء قادتها، وقد أبان عن هذا المنهج الناقد بوضوح عند تقييمه لأبرز محطات الجماعة، كمناقشته أسباب المحنة التي مرت بها الجماعة، ومسألة التنظيم الخاص، وموقف الإخوان من الثورة وعلاقتهم برجالها، بل ونقد حتى تكوين الجماعة لأفرادها علمياً وثقافياً.¹

هذا من جهة التأثير أما من جهة التأثير فقد ترك القرضاوي بصمة واضحة على جيل الصحوة الإسلامية بأكمله، فهو معدود من العلماء البارزين الذين بالصحوة الإسلامية الأبوة المعنوية، ونظروا إليها كمشروع غرسوا بذرتهم وقاموا برعايتها حتى غدى ظاهرة عالمية، والتي أصبحت تحمل هم الأمة عندما تخلى عنها مشروع الدولة القومية، فلا يمكن معرفة الأطر الفكرية للصحوة الإسلامية في القرن العشرين دون الرجوع لكتب ومقالات وأحاديث يوسف القرضاوي، والذي كان يعتبر الصحوة جزءاً منه كأنما هي ولده وفلذة كبده.²

لقد برع الشيخ رحمه الله في المزاجية بين الفقه وبين الفكر، وبين الشرع وبين النهضة، وذلك من خلال جمعه بين النسبتين والتوليف بينهما، واستثمار ذلك في الدعوة، فبعد أن كانت الساحة تشهد مفكرين لا علاقة لهم بالفقه، وفقهاء لا علاقة لهم بقضايا الفكر، جاء القرضاوي ليؤصل تطلعات الفكر بأحكام الشرع، ويشذب الفقه بحقائق العصر، فكان بذلك نسيج وحده وفريد عصره، ووجد فيه كثير من المتطلعين للنهوض ضالهم فكثرت أتباعه والمتأثرون بنهجه.

وكذلك فإن أسلوب القرضاوي في الدعوة قد أسس لنهج جديد في الخطاب الإسلامي تأثر به كثيرون، والذين حاولوا النسيج على منواله في قضايا مختلفة، فظهرت الدراسات المتخصصة التي تجمع بين القواعد الفقهية والمقاصد الشرعية ومسائل العصر، وتعددت

¹ - القرضاوي، المرجع السابق، ج 2، ص 206.

² - القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ج 4، ص 6.

المواضيع التي أدرجت تحت عنوان فقه الواقع أو فقه العصر أو فقه التيسير أو فقه الموازنة وما شبه، والتي حاز الشيخ فيها قصب السبق كماً وكيفاً، فكل متكلم في هذه المسائل سيكون عالمة على القرضاوي من حيث يدري ولا يدري.

ولا يخفى ما لهذه القضايا من اتصال بالحياة العامة للمسلمين، وهذا ما يجعل لها عظيم الأثر في منهج إسعاف الأمة في نهضتها، ولكن يُخشى أن يتصدر لها من ليس أهلاً للحديث فيها، إمّا لضعفه في جانب الفقه، أو لقصور في نظريته للواقع، فيتخذ هذا المسلك مطية لتميع الفقه وتقطيع صلاته بالواقع، لأجل هذا سعى الشيخ إلى بيان منهجه وتجليته معنى التيسير المراد، من خلال مجموعة من كتبه الخادمة لهذا المسلك، حاول فيها أن يظهر قواعد الأخذ بأيسر الأقوال ومحاذير التسيب في الفتوى، وشروط الاجتهاد وعوامل السعة والمرونة في الفقه.¹

رغم ذلك إلا أنّ بعض المتحدثين بلسان التيسير والمقاصد من الذين حاولوا السير على نفس النهج دون تكوين قاعدي في الفقه ودون استكمال للعدة الشرعية، قد وقعت منهم مخالفات صريحة، فتهجموا باسم الدعوة ومصلحتها على عويصات الفقه دون زاد علي، فركبوا بذلك مركباً صعباً وحاولوا القفز على أصول الشريعة ومسلماتها بدعوى الأخذ بالأيسر، فعللوا بمقاصد مظنونة، وحكموا الهوى في مقابل محكمات النصوص، وأظهروا الجراءة على الفتوى بدعوى التوسعة على الأمة، ومنهج الشيخ رحمه الله الذي سطره في كتبه وبينه في خطبه براء من هذا الافتئات على الشرع ولا يسع المقام هنا لبيان صور من هذا التنزيل المغلوط لمنهج الشيخ في التيسير، واكتفيت بالإيماء إليه، وكتب القرضاوي التي أبان فيها منهجه ممّا ذكرناه سابقاً كافية للتمييز بين المسلكين، وقد ذكر رحمه الله في كتابه (ثقافة الداعية) نماذج من أغاليط المشتغلين بالدعوة دون فقه ونبه على محذورات ينبغي اجتنابها، من ذلك المبالغة في تعليل الأحكام، خاصة في باب العبادات.²

¹ - من ذلك بعض كتب الشيخ منها على سبيل الذكر لا الحصر: الفتوى بين التسيب والانضباط، تيسير الفقه في ضوء

الكتاب والسنة، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، تيسير الفقه للمسلم المعاصر وغيرها.

² - يوسف القرضاوي، ثقافة الداعية، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1996م)، ص 72.

4. معالم فقه النهضة عند القرضاوي.

إنّ الحديث عن معالم فقه النهضة عند القرضاوي هو في حقيقته محاولة للكشف عن رؤيته الحضارية من زاوية الفقه، أو بمعنى آخر هو محاولة للتعرف على آراء القرضاوي الفقهية المصاحبة لمشروع النهضة الإسلامية المنشودة، ولا شك أنّ ما سطر في هذه الورقة في المحورين السابقين حاول أن يتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر مع شيء من التعميم، أمّا في هذا المحور فسأحاول إبراز أهم معالم الآراء الفقهية النهضوية عند القرضاوي رحمه الله، والكشف عن تمثلاتها في اجتهاداته بشكل أوضح.

ولا أريد هنا أن أكرر ما قيل عن منهج القرضاوي في الفقه والتجديد كالوسطية والتيسير، واللذان أصبحا صفتين ملازمتين لأعمال الشيخ رحمه الله يشير إليهما كل من تناول أعماله بالدرس والبحث، ولكن سأحاول تلمس أهم المعالم الفقهية التي تؤطر رؤية الشيخ النهضوية، من خلال تتبع مظانها في اجتهاداته، فعلى غزارة ما ألف الشيخ رحمه الله إلا أنّه لم يترك لنا كتاباً يبين فيه منهجه في الاستدلال والترجيح والحجاج الفقهي، إلا ما ذكره في ثنايا كتبه عند مناقشة بعض المسائل، كتأكيد الدائم على أنّ الوسطية والتيسير هما أمران مطلوبان شرعاً بالأساس وليساً منهجاً خاصاً به رحمه الله، قال تعالى: ﴿وَكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ [البقرة:143]، وقال أيضاً: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة:185].¹

لذا سأحاول في هذا العنصر الكشف عن أهم المعالم والخصائص التي ميزت اجتهادات القرضاوي الفقهية وكانت خادمة لرؤيته الحضارية، من خلال الكشف عن أهم معالم الفقه عنده، والذي يراه مطلوباً في هذه المرحلة الحرجة التي تعيشها الأمة.

1.4. فقه إرفاق لا فقه إرهاق:

إنّ الرؤية الحضارية لمشروع الإحياء الإسلامي التي انضوى القرضاوي تحت لوائها مبكراً، وآمن بأهدافها ودافع عن مبادئها تأخذ في حساباتها اعتبارين اثنين: -الاعتبار الأول: هو حتمية بناء النهضة الحضارية المنشودة على أساس إسلامي خالص، فلا يمكن للأمة أن تمهض دون الاعتماد الكامل على دينها الذي يمثل كينونتها اعتماداً كلياً في

¹ - يوسف القرضاوي، نحو فقه ميسر معاصر، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1999م)، ص 15.

أفكارها وسلوكها، فالإسلام هو الحقيقة المطلقة التي تجسد ماهية الأمة الحضارية، فلا نهضة للمسلمين دون إسلام، ولا تمكين لهم دون شريعة.

-وأما الاعتبار الثاني: فهو وجوب تفهم حالة الضعف العام الذي أعقب سقوط الأمة الحضاري، فمن الصعوبة بمكان أن تقوم هذه الأمة من كبوتها دون الأخذ في الحسبان أثقال قرون الانحطاط التي تراكت فوق كاهلها، فهي في حالة من الضعف الشديد بسبب ترسبات سباتها الحضاري الطويل، وأيضاً بسبب ما آلت إليه أوضاعها العامة بفعل أعدائها من تخلف وتشردم، وكل محاولة لاستنهاضها دون مراعاة هذه الحالة التي هي فيها هو إرهاق لها وتكليف لها بما لا يطاق، فهي بحاجة ماسة إلى إسعاف ورفق لتتجاوز هذه المرحلة الحرجة التي وقعت فيها، فلا يمكن مخاطبتها بفقہ القوة والعزائم وهي في حكم الضرورة الملجئة، فمقامها مقام اضطرار لا مقام اختيار.

على ضوء هذين الاعتبارين بُنيت أغلب المسائل الفقهية في اجتهادات القرضاوي، فهو يحاول فيما يراه أن يراعي الرفق بالأمة وتجنب إرهاقها، فحالتها الحرجة تحتاج إلى فقه مسعف يأخذ بيدها شيء فشيء حتى ينقلها من حال السقوط الذي وجدت نفسها فيه إلى حال القيام والاستواء، والمنهج الفقهي الذي يحقق هذا الإسعاف هو الذي حاول رحمه الله السير عليه.

وقد ذكرت شيء من ذلك عند الحديث عن كتابه (الحلال والحرام في الإسلام)، الذي حاول أن يراعي فيه الرفق والإسعاف أشد المراعاة، من خلال الأخذ بالتيسير لا التعسير و بالتخفيف لا التشديد، وليس المقصود بالمراعاة هنا تتبع الرخص وموافقة أهواء المكلفين، وإنما المقصود هو الرفق بالمسلمين من خلال مراعاة حالهم وإبقائهم في دائرة الحل الإسلامي قدر المستطاع، خاصة أولئك الذين يعيشون حالة من الضرورة العامة، كالمقيمين في غير بلاد المسلمين، ولذا نجد الشيخ قد خص هذه الفئة من المسلمين بكثير من كتبه واجتهاداته ومشاركاته في الهيئات الشرعية التي تعنى بشؤونهم، وهذا أمر أوضح من أن يطلب عليه الدليل، ولكن لا بأس هنا من ذكر كلام نفيس للشيخ يصب في هذا المعنى وهو يتكلم عن مقصوده بتيسير الفقه والذي حصره في أمرين: "أولهما: تيسير فهمه للمسلم المعاصر المشغول بمتاعب الحياة، المزحوم بكثرة المعارف،....ثانئهما: تيسير أحكامه نفسها للعمل والتطبيق بالبعد عن التخليط والتشديد وترجيح التخفيف والتيسير."¹

¹ - القرضاوي، مرجع سابق، ص15.

- ويمكن الخلوص من خلال النظر في كتب الشيخ وفتاويه ومواقفه أن فقه الإسعاف والإرفاق عنده يرتكز على مجموعة من النقاط والتي يمكن حصرها بالشكل التالي:
- هو فقه عملي يراعي تبسيط الأحكام للأفهام وتسهيل أعمالها للتطبيق، ولا يميل إلى تعقيد المسائل والإغراق في التنظير دون عمل.
 - يراعي فقه الإسعاف خصوصية الأمة في هذا الزمن ويتلمس لها الرخص الشرعية بسبب حال الضرورة العامة التي تعيشها، ويحاول أن يرفع عنها الحرج العام الذي وجدت نفسها فيه.
 - هو فقه يسعى لإيجاد الحلول والمخارج لقضايا الأمة في أقوال الفقه الواسعة ولا يحصر نفسه في دائرة مذهب معين، فهدفه إبقاء الأمة في دائرة الحل الإسلامي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.
 - هو فقه يستأنس بأقوال الفقهاء الأوائل الذين درست مذاهبهم، فأخذ المسلم بقول من أقوال الفقهاء المتقدمين ولو على ضعف خير له من تقحم الحرام الصريح.

2.4. فقه تجميع لا فقه تفريق:

سعى القرضاوي رحمه الله في طرحه الفقهي المصاحب لمشروع النهضة إلى أن يكون فقه النهوض عامل تجميع للأمة لا عامل تفريق لها، فقه يقرب شتاتها ولا يزيد تمزقها، لأجل هذا كان رحمه الله من أشد المدافعين عن فقه الدليل الذي يزن بالنص ويحتكم إليه، ويجمع الأمة على الواضحات ويجنبها مضايق تفريعات الفقهاء التي يكثر حولها الخلاف، فهو يرى التخفف من قيود الفقه المذهبي التي ظهرت في عصور الانحطاط، والتي غيّبت فقه النصوص في كم هائل من التفاصيل، أغلبها لا يستند إلى نص واضح ولا إلى دليل قوي، وكثيراً ما كان يوجه النقد إلى تفريعات الفقه الموروث التي حشرت الأمة في فترة زمنية مضت وضيق عليها، من ذلك كلامه عن بعض مسائل الطلاق والبيوع في كتب الفقه، والتي جمدت على أمثلة المتقدمين، والذي قال فيه بالنص: "كان الفقه في أبواب المعاملات ميتاً لا روح فيه ولا حياة".¹

¹ - القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ج 1، ص 111.

لم يقتصر نقد القرضاوي على أمثلة الفقه بل كذلك على دوره في الأمة بمفهومه الواسع، لذا سعى إلى تفعيل أثره في المعادلة الحضارية، حيث يرى أنّ الفقه يمكن أن يفعل كعامل جمع وتوحيد للأمة إذا نقي من الجمود والتعصب، وغذا أبعد قدر الإمكان عن معارك الجدل العقيم، وهو بهذا يعطيه بعداً سياسياً، لذا تراه في كتبه وفتاواه يأخذ عن الجميع ولا ينحاز لطرف دون طرف، ولا يتعصب لمذهب دون آخر ولا يقدح في مخالف، بل يطرح رأيه كما يراه ويتجنب الجدل الفقهي العقيم الذي يمزق الأمة ويشوش على نهضتها، ويقتصر في أغلب ما يكتب على البيان السهل الميسور للأحكام.

ولأجل هذا المسلك الفقهي الذي يتحاشى إرباك الأمة بالاختلافات المذهبية، نجده يأخذ عن الفقهاء المتخفين من قيود المذهب، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، فهو يرى فيهما صورة الفقيه الواقعي المتحرر من قيود التقليد، والذي يسعى لربط الأمة بفقه الدليل دون تعسير عليها أو تشديد، وقد تكلمنا سابقاً كيف أنّ الشيخ رحمه الله أكثر من الأخذ في كتابه (الحلال والحرام) عن الفقهاء ذوي النزعة الاستقلالية في بيئتهم الممتذهبة كابن حزم والشوكاني والصنعاني رحمهم الله، فالقرضاوي رحمه الله يحاول توسيع دائرة الخيارات الفقهية من خلال تنويع مصادر الفقه تقليلاً من الخلاف الملازم لدوائر المذهب الضيقة.

والحقيقة أنّ منهج التقريب وتقليل الخلاف بين أفراد الأمة في باب الفقه، والذي سار عليه الشيخ رحمه الله قد سبقه إليه بعض شيوخه الذين أخذ عنهم، فكتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق والذي ألفه بتوجيه من حسن البنا رحمه الله كان الغرض منه تقليل الخلاف الفقهي وجمع الأمة قدر المستطاع على فقه الدليل الواضح، من خلال تناول مسائل الفقه الإسلامي مقرونة بأدلتها، من صريح الكتاب والسنة ومما أجمعت عليه الأمة، معروضة بسهولة ويسر مع تجنب ذكر الخلاف إلا فيما يسوغ ذكره.¹

وأيضاً كتاب (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) لشيخ محمد الغزالي، وهو كسابقه من توجيهات حسن البنا رحمه الله لمؤلفه، وهو أيضاً يصب في معنى التقارب والتوحد، فهو كتاب يبين المعالم الكبرى للثقافة الإسلامية التي يجب على المسلمين التوحد والالتفاف

¹ - سيد سابق، فقه السنة، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1977م)، ج 1، ص 7.

حولها، حتى يضيّقوا ما بينهم من خلافات تمزق وحدتهم، وحتى يعودوا إلى نبع الفقه الصافي الذي يجمع ولا يفرق.¹

إنّ فقه التجميع وتقليل الخلاف وتوحيد مشاعر المسلمين على الحب والتآخي الذي أطر به القرضاوي رحمه الله أغلب اجتهاداته الشرعية ومواقفه السياسية هو الذي جعله يوسع آماله في التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة، ومحاولاته في الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين للتقريب بين السنة والشيعة في ذلك معروفة، فالشيخ يعلم أنّ من شروط النهضة الرشيدة وجود الوحدة الشعورية بين المسلمين، فالأمة التي يحارب بعضها بعضها ويعادي بعضها أبعد الأمم عن الرقي والنهوض، ولطالما استعمل خصوم الأمة في الداخل والخارج أسباب الخلاف فيها للتحريض بين أفرادها وتشتيتها، فالفقه الذي هو في الأصل تعاون على البر والتقوى أصبح بفعل كيد الكائدين وجهل الجاهلين يستعمل لإذكاء نار الخلاف بين أفراد الأمة في صورة جدل عقيم، لا يغير ماضياً ولا يبني حاضراً ولا يرفع الخلاف، وإنّما يزيد المسلمين نزاعاً وتباعداً وتمزيقاً، وقد قال تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ [الأنفال:46]

3.4. فقه مدافعة وإمكان لا فقه استسلام وإذعان:

إنّ معرفة الأمة لمكانها من حركة التاريخ ودورته شرط أساسي لمعرفة نوع الأعباء الحضارية التي تستطيع القيام بها، في هذا المعنى يقول المفكر مالك ابن نبي في كتابه (شروط النهضة): "من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دورة وتسلسلاً، فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، وهو تارة أخرى يلقي عليها دثارها، ليسلمها إلى نومها العميق. فإذا ما أخذنا هذه الملاحظة بعين الاعتبار، ختم علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا، وما يعتورنا من عوامل الانحطاط وما ننطوي عليه من أسباب التقدم. فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا."²

¹ -محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية، (القاهرة: دار الشروق، 14001هـ) ص5.

² -مالك ابن نبي، شروط النهضة، (دمشق: دار الفكر، 1986م)، 47.

فلا يمكن لأمة ناهضة من سقوطها مثقلة بجراحها أن تقوم بأدوار العظمة والمفاخر التي قام بها أسلافها وهم في أوج قوتهم الحضارية، ولا يمكن لأمة ضعيفة هشة أن تحمل على عاتقها التزامات قوية، فإن شرط الاستطاعة والقدرة شرطان ملازمان للتكليف، قال تعالى: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]

وعلى هذا فإنّ فقه النهضة يجب أن يكون فقه إمكان، يحقق للأمة أقصى ما يمكن أن تصل إليه من المصالح في حدود استطاعتها، وعلى هذا الأساس بنى الشيخ منهجه في فقه الموازنات والأولويات، فهو فقه يوازن بين ما نريد وما نستطيع، يقدم البدائل والحلول للمشاكل الناشئة عن ارتهاق الأمة لأفكار غيرها في السياسة والاقتصاد ومناحي الحياة المختلفة، ويحاول أن يوفر لها ممرات فقهية آمنة تنقلها من حال الضعف الحضارية إلى حال القوة والتمكين والذي تكون فيه مالكة لأمرها ومستقلة بتوفير حاجياتها الأساسية، الوضع الذي تصنع فيه منتجها الحضاري ولا تكون مستهلكة له فقط.

لقد ناضل الشيخ وقاوم ليبين أن ما تحتاجه الأمة اليوم هو فقه الإمكان لا فقه التنطع والتبليس الذي يكثر الجعجة بدون طحن، ويوهم الأمة بحلول شرعية غير قابلة للتنزيل على أرض الواقع، وكتاب (الصحة الإسلامية بين الجحود والتطرف) هو في جوهره تأصيل شرعي لهذه الرؤية الحضارية، خاصة في نقده لتلك التيارات التي جنحت للعنف والتطرف وغرت الناس بنصوص شرعية لم تتوفر شروط تنزيلها، ففقه النهوض هو فقه إمكان بالأساس يراعي المرحلية والتدرج، ويقدم لكل وضع الحلول الشرعية التي تناسبه بحسب القدرة، ولا يرهق الأمة برؤى ضعفت بصيرتها بالحياة والتاريخ وسنن الله في الكون، فتجد أحدهم يريد الوصول على نتائج بدون مقدمات موضوعية.¹

ولكن في نفس الوقت فإنّ فقه النهضة هو فقه ممانعة ومقاومة، فهو يأبى الخضوع والإذعان للأفكار المستوردة الواردة عليه ويسعى لرد الشبهات قدر الإمكان، ويحاول مقاومة التشكيك في صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، كلما نعتها خصوم الحل الإسلامي بالرجعية والتخلف.

¹ -القرضاوي، الصحة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص 98.

وقد جسّد الشيخ رحمه الله هذه الروح الفقهية المقاومة للأفكار المستوردة في كثير من أعماله، فكان مدافعاً عن روح الشريعة ومظهراً لسموها وكمالها، خاصة عند مزاحمتها بأفكار دخيلة يحاول أصحابها إقصاء الإسلام من صناعة النهضة، وتقديم الحضارة الغربية بديلاً عنه، مستغلين في ذلك حال الضرورة التي تمرّ بها الأمة، فكانت اغلب أعمال الشيخ هي إبراز لنماذج من صلاحية الحلول الشرعية لكل زمان ومكان، مظهراً بذلك أنّ الأمة وإن كانت تمرّ بحال من الضعف إلا أنّها لم تمت ولم تستسلم ولم تدعن لأفكار أعدائها، وأنّ صراعها من أجل استرجاع مكانتها لا إزعاج فيه ولا استسلام.¹

5. آثار فقه النهضة عند القرضاوي:

من الممكن قسمة المراحل العمرية التي عاشها القرضاوي رحمه الله مع مشروع النهضة إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى وهي مرحلة الطلب والتلقي عندما كان طالباً في أقسام الأزهر وجندياً في صفوف الدعوة، حيث أخذ مبادئ العلم من شيوخ الأزهر ومفاهيم الدعوة وأساليبها عن قيادات الجماعة، فتعددت بذلك مشاريعه التي استقى منها مجمل تصورات، وتشكل عنده في تلك الفترة رؤية نهضوية خام، كان يطبعها الحماس والتطلع، لكنّها لم تأخذ حقها من التمحيص والتشذيب، فكانت تطلعات التمكين والنهوض الحضاري عنده تلامس سقف المثل أكثر من أرضية الواقع.

أمّا المرحلة الثانية فهي مرحلة المحنة والابتلاء، والتي مُحص فيها الشيخ وابتلي بلاءً شديداً في سجون الاعتقال وأقبيّة التعذيب، فتكشفت له الكثير من الحقائق التي كانت تخفيها عنه حماسة البدايات وسداجة الصبا، وبدأت تتشكل عنده معالم الصراع النهضوي في البلاد العربية، المتأرجح بين سؤالين ضاهطين: ماذا نريد؟ وهل نستطيع؟

إنّ مرحلة المحنة على مراراته لم تبخل على الشيخ بمنح جليّة، فقد أكملت حرارتها نضجه الفكري، وكشفت له عذاباتها النقاب عن القواعد الحاكمة لصراع النهضة والتمكين، وقد ضمن مذكراته الكثير من الملاحظات على هذه المرحلة خاصة في الجزأين الثاني والثالث، فسجل فيهما جملة من المراجعات والانتقادات لمشروع جماعة الإخوان التي كان جندياً فيها، ويمكن أن نلخص أهم تلك العبر المستخلصة من دروس المحنة التي مرّ بها في النقاط التالية:

¹ - يوسف القرضاوي، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمّتنا، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1993م) ص 7.

-إن مشروع النهضة الإسلامية هو مشروع تحكيم منهج الله في الأرض والذي تضبطه نصوص الشرع ونواميس الكون في النصر والخذلان.

-من أسباب تعطيل مشروع النهضة مصادمة الجماعات للحكومات، فمنهج العنف في معركة التمكين منهج كثير المفاسد.

-النية الصالحة للتغيير والنهوض لا تكفي وحدها ما لم تكن مصحوبة بمشروع كلي متكامل، يبني الفرد والأسرة والمجتمع ثم الدولة، ويأخذ بأسباب القوة المعرفية والاقتصادية.

-الجماعة جزء من الأمة وليست هي الأمة فإذا فشلت الجماعة فإنّ في الأمة بدائل كثيرة.
-من أسباب انكسار المشروع النهضوي القراءة الخاطئة لمعطيات الساحة الاجتماعية والسياسية.

-مشروع النهضة يثمر بمنهج الدعوة الحسنة، وينكسر بسياسات المغالبة والإقصاء والتيسر والعنف.

أما المرحلة الثالثة التي عاشها القرضاوي مع مشروع النهضة، فهي تلك التي أعقبت خروجه من السجن وباشراً بعدها أعباء التعليم والدعوة مدراساً وواعظاً، وهي المرحلة التي تبوء فيها رحمه الله مكان القيادة في مشروع الإحياء الإسلامي الكبير، فأصبح من قيادات العمل الإسلامي العالمية يجوب مختلف البلدان مرشداً ومبشراً، وبدأت تظهر ثمار منهجه في الفقه والدعوة هنا وهناك، وهي أطول مراحل حياته والتي امتدت ما يقارب الستة عقود من الزمن.

في هذه المرحلة الخصبة ولج القرضاوي العالمية من أبواب الفقه والدعوة، والتي كانت مشرعة أمامه، فأصبحت كتبه ومحاضراته عابر للقارات، وأصبح كثير الحركة والتنقل حتى لقب "الشيخ الطائر"، ساعده في ذلك استقراره الوظيفي في دولة قطر، وتخففه من أعباء الالتزام التنظيمي مع الجماعة، وارتماؤه في أحضان الأمة الواسعة فأصبح في فترة وجيزة لسان الصحوة الناهضة وقلمها، خاصة في فترة السبعينات التي شهدت جهود الشيخ الدعوية في جهات المعمورة الأربع.¹

¹ -القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ج 4، ص 6.

لا شك أنّ هذه المرحلة التي عاشها القرضاوي قائداً وموجهاً للصحة الإسلامية يمكن أن ينظر إليها على أنّها أكثر الفترات انتاجاً وأثراً، والتي يمكن من خلالها الكشف عن آثار فقه النهضة في الأمة، والذي كان الشيخ رحمه الله أحد أبرز مؤسسيه مع غيره من علماء الأمة، وله فضل لا ينكر في صناعة ملامحه، وبصمته النهضة في هذه المرحلة لا تخفى على أحد.

إنّ أهم ما سعى إليه القرضاوي طيلة حياته الدعوية هو إبراز معالم الإسلام الحق غير المشوب ولا المجزأ، وهذا ما جعله يزواج بين المدافعة عن مبادئ الشرع العامة تارة وبين تعليم وبيان أحكامه المفصلة تارة أخرى، ويمكن لنا أن نتلمس آثار هذا المسعى في ثلاثة جوانب:

1.5. الثقافة:

سعى القرضاوي من خلال مشروع الصحة للعناية بالجانب الثقافي في الأمة، والذي يركز بالأساس على إعادة صياغة التصورات والمفاهيم المؤثرة في السلوك الاجتماعي العام صياغة سليمة، فحاول بما قدمه من خطب وكتابات إلى أسلمت الحالة الثقافية في المجتمعات المسلمة، وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى؛ إذ كيف لنا أن نأسلم ما هو مسلم بالأساس؟

ولكن المطلعين على مشكلات الثقافة في العالم العربي والإسلامي يعلمون جيداً حجم الانسلاخ والمسح الذي ساد هذا الجانب الحساس، وأغلب جهود القرضاوي الدعوية في خطبه وحصصه الإعلامية كانت محاولة لإعادة تشكيل ثقافة الأمة وفق هويتها الإسلامية، من خلال مواد إعلامية متنوعة تهدف إلى إعادة بناء ثقافة المسلم المعاصر بعيداً عن دواخل وشوائب الأفكار الوافدة، وهذا ما يمكن الوقوف عليه بتتبع مساره الإعلامي منذ برنامجه الإذاعي الأول "نور وهداية" مروراً ببرنامجه التلفزيوني "هدي الإسلام" وصولاً إلى برنامجه الشهير "الشريعة والحياة".¹

¹ -المرجع نفسه، ج3، ص146.

لقد خاض القرضاوي سجال أسلمت الثقافة كاتباً وخطيباً وإعلامياً وطرح فيه مواضيع في مختلف المسائل الاجتماعية التي تهم المسلمين على اختلاف مستوياتهم التعليمية والوظيفية، وبفضل الانتشار الواسع لبرامجه الإعلامية وتنوع مواضيعها أصبح القرضاوي إمام عامة له جمهور كبير، فيهم الأمي والمتعلم والمتخصص.

إن سجال استرداد الهوية الثقافية التي نهض فيه الشيخ كان سجلاً حامي الوطيس لا تضع فيه الحرب أوزارها إلا لتشتعل من جديد، فموضوع أسلمت الثقافة هي في صميم مشروع النهضة، والمعركة في ذلك معركة شدّ وجذب لاسترداد مقومات الأمة الأساسية التي طمسها الغرب وأذنبه، بعد أن سيطروا على الحياة العامة.

2.5. الاقتصاد:

من الجوانب المهمة التي تجلّى فيها فقه القرضاوي الجانب الاقتصادي، وذلك من خلال تنزيل أفكاره النهضوية على قضايا المعاملات المالية، والذي مثله بمشاركته المبكرة في مشاريع الصيرفة الإسلامية منذ ظهورها الأول سنة 1975 في صورة (البنك التجاري الإسلامي)، والذي رأى فيه الشيخ انتصاراً كبيراً للأمة في معركة تحرير اقتصادها من هيمنة الاقتصاد الرأسمالي بفلسفته الربوية، فبعد أن كان (عبيد الفكر الغربي) كما وصفهم الشيخ يزعمون أن قيام (بنك إسلامي) ضرب من المستحيل، ويدللون على ذلك بقولهم: إن الاقتصاد عصب الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد والفائدة عصب البنوك، ومن زعم إقامة بنك بلا فائدة فهو واهم.¹

ثم توالى بعد ذلك مشاريع الصيرفة الإسلامية في مختلف الأقطار العربية، وقد شارك الشيخ في كثير من هيئاتها ومجالس إدارتها مراقباً شرعياً، وقد شهدت أيامها الأولى الكثير من التحديات، خاصة تحدي استمرارها وتحدي التزامها بشريعته الإسلامية، وهنا فتح باب سجال فقهي أمام أنصار هذه المشاريع تصدر له هذه المرة جمع من العلماء الذين رأوا في عقود هذه البنوك ما يخالف الشريعة الإسلامية.

¹ - المرجع السابق، ص 245.

فبعد معركة نشأة البنوك الإسلامية مع خصوم الحل الإسلامي وجد الشيخ نفسه أمام تحدي بيان مشروعية هذه البنوك أمام بعض أطراف الحل الإسلامي، فهو يرى أن مفسدة سيطرة البنوك الربوية على المال العام في البلاد الإسلامية أعظم خطراً ومفسدة من نقائص البنوك الإسلامية، فالقضية ليست قضية ترجيح بين أقوال الفقه بقدر ما هي قضية تطهير أموال الأمة من رجس الربا الصريح، ودفاعاً عن هذه الرؤيا ألف الشيخ كتابه (بيع المربحة للأمر بالشراء كما تجريه المصارف الإسلامية)، والذي رد فيه على المتحاملين على المصارف الإسلامية وبين فقهه في إدارة معركة المال في هذا الزمن، بل اعتبر مساندة هذه البنوك التي تقاوم الربا صورةً من صور الجهاد الواجب في هذا العصر.¹

3.5. قضايا الأمة الكبرى:

كان القرضاوي رحمه الله إلى آخر نفس من حياته من أكثر المدافعين عن قضايا الأمة، من فلسطين إلى بورما وكشمير وأفغانستان مروراً بغزو العراق وصولاً إلى أحداث ما يسمى بالربيع العربي، شارك فيها الأمة آلامها آمالها بقلبه وروحه، وسخر قلمه ولسانه لنصرة قضاياها العادلة، وحاول في ذلك أن يكون مع الحق حسب اجتهاده دون أن تأخذه في ذلك لومة لائم، يحاول الثبات على المبادئ، حتى وإن غلبته العاطفة بعض الأحيان وهو يحكي مآسي الأمة فهو معذور في ذلك فليست الثكلي كالمستأجرة.

إنّ خطبه المذاعة يوم الجمعة من كل أسبوع قد أبانت مواقفه حول قضايا أمته دون لبس، وقد ألفها الناس باعتبارها دروساً أسبوعيةً يسمعونها ويهتمون بها، لما فيها من تثقيف للأمة من خلال تتبعها لأحداث الساعة وإظهار موقف الشرع منها، حتى أصبحت تلك من أقوى الموجّهات لضمير الأمة في تلك الخطوب المدلهمة، يهتم لها البعيد قبل القريب.

فلا غرابة إذاً أن يكون للشيخ بسببها أتباع كثر وخصوم أكثر، فحديثه عن فقه المقاومة كحرمة التطبيع ومشروعية العمليات الاستشهادية هو ضرب لخط المهادنة والمسالمة مع المحتلين في مقتل، وحديثه عن حق الشعوب في محاسبة حكامها وعن مشروعية التظاهر السلمي هو إرباك للحكم الشمولي المتسلط، فلا عجب أن يجتمع هؤلاء جميعاً وإن اختلفوا فيما بينهم على معادات الشيخ فيصفونه بالإرهاب تارة وبالعمالمة تارة أخرى.

¹ - يوسف القرضاوي، بيع المربحة للأمر بالشراء كما تجريه المصارف الإسلامية، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1987م)، ص3.

لقد كتب الشيخ كتابه (فقه الجهاد) لنصرة المؤمنين المستضعفين الذين احتلت بلادهم واستبيحت كرامتهم، وتكلم عن الاستبداد السياسي في كتبه ومقالاته لرفع الظلم عن المقهورين الذين سلبت حريتهم في أوطانهم، وقصيدته الشهيرة "النونية" تحكي أبياتها النازفة قهر الإنسان لأخيه الإنسان، وأغلب خطب الشيخ هي مدافعة لهذا القهر بالتوجيه والبيان، فالشيخ يؤمن أن الظلم والاستبداد لا يبني حضارة ولا يقيم نهضة.

لأجل هذا فإن مواقف من قضايا الأمة كما رزقته بأحباب واتباع فقد جلبت له أعداءً وخصوماً، فقد رأينا ما لقيه بسبب سفرته إلى أفغانستان بعد تحطيم تماثيل "بوزا" وكيف نعت بالعمالة للمنظومة الغربية، وسمعنا أيضاً ما ناله بسبب وقوفه مع المطالب المشروعة للشعوب في عيش كريم، وكيف نعت بالإرهاب والعمالة للأجندات الغربية حسب زعم خصومه، لكنه مع ذلك كله بقي وفيًا لخطه الذي ارتضاه، ونشأ عليه جيلاً من الأمة قرأ كتبه وسمع خطبه وتربى على مواقفه.

6. الخاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية يمكننا أن الخلوص إلى مجموعة من النتائج والتوصيات المستفادة منها، رغم أن عدد أوقها لا يفي بالتتبع الدقيق لمسائلها المتفرعة والاستقصاء المعمق لمواضيعها المتشعبة إلا أنني حاولت الإجابة عن أهم سؤالاتها المحورية والتي يمكن الخلوص من خلالها إلى جملة من النتائج من أهمها:

-يمتاز خطاب القرضاوي النهضوي بشقيه الفقهي والدعوي بسهولة في الطرح وشمولية في التناول، وقد أسس من خلاله إلى طرح دعوي جديد يجعل من تيسير الفقه حسب رؤيته قاعدة ارتكاز لخطاب المجتمع الإسلامي أفراداً وجماعات، نخباً وعامة، حكماً ومحكومين.

-كان لصفات القرضاوي الذاتية ومؤهلاته العلمية دور بارز في إظهار معالم فقه النهضة في فكره الإصلاحي.

-لم يكن القرضاوي مفكراً معزولاً بل كان داعية متبوعاً وهذا ما ساعده على التحشيد لأفكاره، والتي كان لها روح واسع في حياته قبل مماته وانتشار رؤيته الإصلاحية.

-لقد كان للقرضاوي الأثر الأبرز في إدخال الفقه في قضايا الفكر محالاً بذلك كسر عزلة الفقه عن الحياة وبيان صلاحيته لكل زمان ومكان.

-حاول القرضاوي باجتهاداته المعاصرة الجمع بين الفقه والواقع مبرزاً صورة العالم العامل الذي ينزل أقوال الفقهاء المتقدمين على القضايا المعاصرة، والذي يجمع بين الفهم العميق للشرع والفهم الدقيق لحياة الناس.

هذا ومن أهم التوصيات التي يمكن الخروج بها:

-السعي لتحويل مشاريع القرضاوي من آراء في صفحات الكتب إلى مشاريع قائمة في حياة الناس.

-تكثيف الدراسات المتخصصة حول أعماله الكاملة.

-الاهتمام ببيان منهجه في الفقه والدعوة حتى لا ينسب إليه ما ليس منه.

-إبراز الجوانب المخفية من تصورات القرضاوي النهضوية خاصة تلك المتعلقة بمنهج التربية والتعليم، والسعي لإقامة مؤسسات تعليمية تهتم بتلك الرؤية.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن نبي مالك، شروط النهضة، دمشق: دار الفكر، 1986.
- الجوهري إسماعيل، الصحاح، أحمد عطار، بيروت: دار العلم للملايين، 1987.
- سابق سيد، فقه السنة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1977.
- سلطان جاسم، من الصحو إلى اليقظة، المنصورة: مؤسسة أم القرى، 2005.
- الغزالي محمد، دستور الوحدة الثقافية، القاهرة: دار الشروق، 1400.
- القرضاوي يوسف، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، القاهرة: دار الشروق، 2002.
- القرضاوي يوسف، الحلال والحرام في الإسلام، القاهرة: دار الكتب المصرية، 2012.
- القرضاوي يوسف، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، القاهرة: مكتبة وهبة، 1993.
- القرضاوي يوسف، الصحو الإسلامية بين الجحود والتطرف، قطر: كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1406.
- القرضاوي يوسف، بيع المراجعة للأمر بالشراء كما تجرّه المصارف الإسلامية، القاهرة: مكتبة وهبة، 1987.
- القرضاوي يوسف، ثقافة الداعية، القاهرة: مكتبة وهبة، 1996.
- القرضاوي يوسف، دراسات في فقه مقاصد الشريعة، القاهرة: دار الشروق للتوزيع والنشر، 2006.
- القرضاوي يوسف، نحو فقه ميسر معاصر، القاهرة: مكتبة وهبة، 1999.
- المحلي جلال الدين، شرح الورقات، حسام الدين عفانة، فلسطين: جامعة القدس، 1999.